من أساطير الأغريق

بومونا

للأستاذ دريني خشبة

عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال في إهابها الوردي وتلتمع في فمها الرقيق الخمري ثنايا من اللؤلؤ الرطب، وتبسم ... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل في قلوب العاشقين، تلسعهم، وتسقيهم رحيقاً !..

هي بدع من عرائس الغاب ؛ فهي لا تغشى الأنهار تتلاعب في طيات أمواجها ؛ وهي لا تحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً ؛ وهي تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعي والوحوش، ومنظر هذه حين يساور أحدها الآخر يبعث في نفسها اشمئزازاً، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التي جعلت الضعيف فريسة للقوي يذله ويقتله ... ثم يأكله

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة، إلا من نشاط الحياة يسري فيها فتهتز وتربو، ثم تكتسي بالسندس، وتنضر بالزهر، وتطن بموسيقى اليعاسيب ... وأولعت كذلك بالحدائق .. وقد غرست حديقتها على عُدْوَة النهر، وسَوَّجَتْ عليها بسياج من شوك، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين ... وكانت تقضي في جنيتها أكثر وقتها، ولو استطاعت لم تبرحها قط، لأن الزنبق الغض، والنسرين الجميل، وأكمام الورد، وهالات البنفسج، ونضرة الشقائق، وأرج التفاح، وعبق الرياحين، وشذى أزهار الخوخ العقيقية، وابتسامات الأقاح، ولآلىء الندى المبثرة فوق العشب ... كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلي، ونفسها العزوف، من هؤلاء الناس، والآلهة، وأنصاف الآلهة، الذين كانوا يتنظرون أوبتها في المساء إلى دارها، فيقفون في طريقها، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب، حائر الروح، خفق الأحشاء موهون القوى !

وكأين من قائل لآخر :

— أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح ؟

— الحسان الفتان ! أجل والله ... رأيتها، وأورثتني ألف حسرة يا صديقي !

— أوَ مشغوف أنت بها حبا ؟

— ومنذ الذي لم تشغفه بومونا حبا، وقد تبلت قلوب الآلهة؟

— إني أغار من كلماتك أيها الصديق ... فاقصر !

— وأنا أغار من غيرتك، فاذهب لطيتك ! !

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذي ينقدح من أغوار قلبه ... عن طريق عينيه ... ثم يمضي كل في سبيله. وهكذا تعادى الناس في بومونا، وهكذا تنافس الجميع في حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها جنوناً، ولقيها مارس وفتن بها فتوناً ... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع، لا يتفتح قلبها لحب ولا يرق قلبها لشكاة المغرم الصب ؛ وكل ما كان يصبيها، ويشغل بالها، هو هذا الفردوس الحبيب، الذي لا يضايقها بكلمات الغزل، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة ؛ بل يحييها دائماً بالابتسامات البريئة وبالروح والشذى

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان يعدل لاحبه لها حب، ولا يسمو إلى افتتانه بها افتتان ... فتى لمحها مرة تطوي الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها، فوجده متجذباً إليها، مجنوناً بها، فتبعها، وجعل يقلب عينيه في مفاتن شعرها المنهدل فوق ظهرها وكتفيها، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق، كأنهما خاتم الطبيعة في صك البكور

أو زهرتان من اللوتس ، ترشقان سلافة الندى ... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران ، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح ، فتضرمان في قلب ڤرتمنوس نيران الحب ، وتزلزلانه زلزالاً عظيما

وعرف الفتى ميعادها ، فكان يصحو مع الفجر ، ويهرع إلى الطريق ، ويلبث يعد الدقائق والثوانى كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد ... حتى إذا أقبلت ، شعر بقلبه يخفق ، وأعصابه تذوب ، وأحس كأنه خَفّ على الأرض ، وغدا طيفاً يوشك أن يسرى مع نسيم الصباح الذى تنشقه يومونا ... له الله ! لكم مَنّى نفسه بقبلةٍ يطبعها على هذا الفم الشتيت تُذهب حَرّ قلبه وتشفى صَدَى روحه الظامئة المتعطشة ، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة لبه ، ولا لب له ، ولا قلب معه ، ولا مداوى لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة فى إثر عبرة ، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحا !

* * *

وذوى ڤرتمنوس وذبل شبابه ، وشَفّه الهم وأضوى جسمه الفكر ، واستسلم لبكاء طويل يتململ به ، وغناء يشبه العويل ، يرسله فى نبرات تشبه الأنين ، يضمنه بثه ، وينظمه شكواه ، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب ، ويودعه النُّطَف الأخيرة من روحه الحيرانة ، ويذهب به فى الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش ، وتسكر بموجع أنغامه الهوام ، ويرقص من فوقه الشجر ... ثم يبكى كل هؤلاء له ... ويعود من حيث أتى !

ولقيته مرة ڤينوس فرقت له ، ورثت لحاله ، وراعها أن يلقى نحب كل هذا العذاب ، فى هوى عروس غاب ، فجلست إليه تسامره وترفه عنه

— أهكذا يقتل الناس الحب يا ڤرتمنوس ؟

— إي وحقك يا ربة ! لقد نال منى هواها ، ولم أعد أفكر فى أحد سواها !

— مسكين ! وهل كلمتها قط ؟

— مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها ، ولكنها أشاحت وأعرضت عنى

— وفيم تطمع إذن ؟

— أطمع فى رضائها ، وأطمع بعد ذلك فى العيش فى ظل حبها

— وإذا لم ترض ؟

— سأعيش لحبها وآلامى ! ولكن ؟

— ولكن ما ذا يا ڤرتمنوس ؟

— ألا تساعدينى يا ربة الجمال ؟ ألا تتفضلين فترققى قلبها علىّ ؟

— عندى فكرة !

— أضرع إليك يا ربة !

— سأمنحك قدرة التشكل ، وتستطيع أن تبدو فى أى صورة شئت

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات ، ثم نفثت فيهن وتمتمت بكلمات سحرية ، ونظرت إلى الفتى فى ظرف ودل ، ونثرت الماء فى وجهه

— والآن ، فكر فى أي صورة تنقلب إليها

وأخذ ڤرتمنوس يتقلب فى صور شتى ... وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع ، فتضاحكت ڤينوس وقالت له :

— فكر أيضاً فى صورتك الأصلية قليلا ...

وسرعان أن عاد إليها ... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له :

— تستطيع الآن أن تلقى يومونا ، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك ! ورفت ڤينوس فكانت فى سماء الأولمب !

* * *

واستطاع ڤرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته في أى لحظة شاء . وكان يدخلها فى صورة بلبل غرد ، ما زال يغنى ويهتف حتى يلفت إليه أنظار يومونا وأسماعها ؛ وكان يتبعها أينما ذهبت فيقف على أقرب شجرة ، ثم يرسل أغانى الحب وأغاريد الغرام ، فتنسكب فى أذني عروس الغاب ، فتقف لتسمع لحظة ، ثم تأخذ فى عملها كأنها لم تسمع شيئا ... فيتضايق الفتى ، ويطير أسوان أسيفا ...

واستمر على هذه الحال أشهراً ، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً ، ويفنى فيها حباً ، حتى خيف عليه من المرض ؛ وأحس هو أن ريب المنون يسرى فى عظامه ، وبرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه ؛ ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته فى صورة أخرى تختلف عن تلك الصور البلبلية التى اعتاد أن تراه فيها ، ثم عول هذه المرة — إذا لم يفز بحبيبته يومونا — على أن ينتحر تحت قدميها فى صورة البلبل الحزين !

رأى أن يزورها فى صورة عجوز شمطاء ! ولم لا ؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن ؟

أليس لهن حديث طلى يتصل من حيث ينقطع ، ويتشعق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة ، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر فى أطراف السكارى ؟ !

وقف قرتمنوس فى ظل أيكة باسقة نامية فى منعرج قريب من حديقة بومونا ، ثم طفق يفكر فى صورة عجوز طيبة القلب ، سمحة الملامح ، وراح يتخيل شعرها الأشمط[1] وذوائبها الخلس[2] وغدائرها الزُّعر[3] ، ويديها عاريتى الأشاجع[4] ، وعينيها الغائرتين ، وجبينها المجعد ، ووجهها المعروق[5] ... فكان له كل ذلك ، ثم كانت له هيبة ووقار وأسر ، فى سكينة ودعة وحسن سمت ... وأضفى عليه حبرة سوداء فضفاضة ، وجعل فى قدميه خفين هرمتين ، وفى يده عكازاً مقوساً ما أشبهه بصولجان الموت !

ثم جعل يدب فى هيئته تلك ، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه ؛ وكانت بومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب فى مثل ذلك اليوم من كل أسبوع ... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها ، أسرعت إليها وحيتها أحسن تحية وألطفها ، ثم فتحت لها وأدخلتها ، وكانت الخبيثة — أو كان الخبيث — تبالغ فى إظهار الضعف وتمثل الإعياء ، فكانت بومونا تسندها من هنا ، وتشد أزرها من هناك ... حتى وصلتا آخر الأمر إلى ظلة وارفة ذات أفياء ، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج ، يغازل العيون والأحشاء ؛ وأشارت العروس إلى العجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صُفَّت عليها الوسائد والحُسْبَانات[6] ففعلت ، ولكن ... ؟ بعد أن أخذت بفَوْدَيْ بومونا ... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة ... قبلة الأمانى والأحلام ! !

لقد شُدهت بومونا من أمر هذه القبلة ، لأنها لم تكن من تلك القُبَل الفاترة الباردة التى تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء ؛ بل كانت قبلة ناعمة فيها خمر ولها حُمَيَّا ، وفيها شعر وموسيقى ، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتى العجوز كأنما حاولت أن تلقى فى صدر الفتاة بكل أسرارها ! !

ولو لا أنها كانت عجوزاً حَيَّرَ بُونا لعشقتها بومونا ...

* * *

ووثبت الفتاة فقطفت عِزْقاً[1] من العنب وقدمته للضيفة العجوز ... ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجنى الشهى وجدتها غائبة عن رشدها ... أو ... كالمغشى عليها ! ترى ! ماذا أصاب أغانا قرتمنوس المختبئ فى جلد هذه العجوز ؟ ! آه ! مسكين ! إنه لم يكد يفيق من سحر القبلة ، حتى رفع بصره إلى بومونا ، فشهد العجب العاجب ، والجمال النادر ، والحسن الباهر ، والرونق والبهاء والرواء ! ! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين وشهد الركبتين الرائعتين الملتفتين ... وقليلاً من الفخذين اللجينيتين ... فاستطير لبه ، وصبا قلبه ، وشردت أفكاره ، وغشى عليه ؟ !

ولما أفاق — أو أفاقت العجوز — سألتها ماذا أصابها ، فشكت وطأة السنين وضعف البدن ، وتهافت أعضائها من الكبر ؛ ثم شكرت لها عِزْق العنب ، وأخذت فى أكل حباته ، وهى تخالس العروس النظرات ... ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما ، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية ، ثم قالت تحدث الفتاة :

— أرأيت يا حبيبتى (١) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش ؛ هل كان يؤتى أكله ، ويحلو عنبه كما هو حلو هكذا ؟

— كلا يا أماه ! هذا شىء بدهى !

— نعنين أن الكرم لا يستغنى عن هذا العريش ! ؟

— طبعاً !

— ولا غناء للعريش من غير كرم !

— لا يكون منظره جميلا رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم !

— عجباً لكن والله يا عذارى ! ! تعرفن ذلك ، ولا تفكرن فى عطلكن ! !

— أو عاطل أنا يا أماه ؟ ماذا تقولين !

— عفواً يا ابنتى ... فإن لك ألف حلية من جمالك الذى لا جمال مثله ... إنما قصدت أن تكن تزهدن دائماً فى أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عريش ... لا سيما أنت يا صغيرتى بومونا إنى أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك ، وكل أمراء النواحى متيمون فى هواك ؛ وأعرف أيضاً أن منهم من يتعذب بالليل ، ويذل بالنهار ، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك فى الطريق ، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات ... بل أعلم

(١) بياض الشعر يختلط بسواده ويزيد عليه
(٢) يعني أشمط واحدتها خلساء وخليس
(٣) جمع زعراء أى قليلة الشعر جداً (٤) بدت عروقهما
(٥) قليل اللحم (٦) المساند

(١) عنقوداً

يا أجمل عرائس الغاب أنك قد بزغت هيافاء ، وبذلوب اللعوب فى كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك ، وتخبّ قلوبهم لحسنك ، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين . ماذا ؟ لم يا بُنيّتى لاتختارين لنفسك من بينهم كفءا يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه ، ويشركك فى هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه ، ويبسم لك وتبسمين ، ويواسيك وتواسين ؟ ما غايتك من هذه الوحدة ، وأنت بها فى منى ، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة ، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذى اسمه ... أسمه أسمه ماذا ؟ آه ! ثرتمنوس ! ذكرت أنى سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد ، وأولاه الضنى ، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً فى عينيه ، وتتأجج نيراناً فى صدره ... لم لا ترحمينه يا يومونا ؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب ؟ إنه ليس إلهاً ولا نصف إله ، ولكنه خليق بحبك جدير بأن تكوني له من دون العالمين ، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك ؛ وهو ليس كجميع العشاق ، لأنه لم يحببك إلا عن بصر بك ، وتقدير لحسنك ، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم ، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى فى صدورهم ، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها ، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها . . أما ثرتمنوس ، فقد أحبك ولم يشرك حسناء فى هواك ، لأنه لايرى لك فى قلبه شريكة تسمو إلى إخمصيك ... إرحميه يا يومونا ، اعطفى عليه ، وانظريه كأنه يتوسل إليك بلسانى ، ويشكو لك بثه بعينى (!) ... ألا تخافين أن تقتص له فينوس منك ؟ ألا تعلمين أنها تتأثر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب ؟ ألم تعرفى ماصنعت بالقاسية أناجزرتيه ؟

— ومن أناجزرتيه يا أماه ؟ وما قصتها ؟

— ألا تعرفينها ؟ ولا تعرفين مأساة الفتى إيفيس ؟

— وما مأساة إيفيس ؟ قصيها علي بالله عليك !

« لقد كان إيفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين ، ولكنه كان من صميم الشعب ؛ وكانت أناجزرتيه من بنات الأعيان الموسرين ... وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع إيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون . وكان كلما لقيها غشيه من الغرام مالو حمله جبل لناء به ، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتزورّ ، وتطوى الطريق عجلانة إلى قصرها الباذخ المنيف ذى الشرفات ... وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدى ثم توصده من دونه ، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلل القضبان ، ثم يذرف دموعه ، وينثنى إلى داره ، وليس في قلبه إلا حبها مع ذاك ، ولا في عينيه الباكيتين إلا صورتها ! وطالما كان يهب من نومه فى جنح الليل فيطوى الطريق مُفزّعاً ، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها ، وعانق قضبانها ، وبكى ماشاءت الآلهة ، وتغنى آلامه وغرامه ، ثم ارتد وقد تضاعف وجده ، وازدادت صبوته ... وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه ، بل كانت لاتعفيه من كلمة قارصة ، أو غمزة تهكم واستهزاء ، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة ؛ بل زادها ذلك قسوة وعناداً .. ولما جد به الجد ، ولم يكن بد مما ليس منه بد ، ذهب إليها فى ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع ، ثم تعلق بالبوابة ، وكانت حبيبته ترتع وتلعب في حديقة القصر ، فهتف بها وقال : « أيتها القاسية أناجزرتيه إسمعي ! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسى وتم لك النصر ! فهنيئاً لك ! تغنّى أناشيد الفرح واللذة الصارمة لأنك قتلت إيفيس ! إعقدى فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز ، ومرغت فى التراب روحه العالية . . . ولكن اصغي إلى يا متحجرة القلب ... لقد عولت على أن أشرب كأس المنون ، ولكنى آثرت أن أشربها أمامك إن لم يكن بين يديك ، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الموجع الأخير ، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك على ... بيد أنى أهتف بك يا آلهة السموات أن تثأرى لى ، وأن تجعلى لى ذكراً فى قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف ، ويتذاكره الناس فى طويل العصور والآباد ... » وكانت السماء كلها تصغى لما يقول إيفيس فلبّت واستجابت ... وكان قد ربط حبل مشنقته فى قضبان البوابة ، وجعل أنشوطتها فى عنقه ؛ فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه ... وقبضت روحه ! ولم تتحرك أناجزرتيه مع ذاك ، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون ... وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها ، ثم حمل الجثمان فى إران [1] إلى المقابر ، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية ،

(١) نعش